وحدة الأمّة الإسلامية في ظلّ الخلاف العقدي والسياسي

د. احسن برامه
جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية – قسنطينة

مقدمة:

يعالج هذا المقال جدلية من الأهمية والخطورة بمكان على ساحة الفكر الإسلامي في تأثيراتها وانعكاساتها على الواقع العام للأمة الإسلامية.

ذلك أن وحدة الأمة الإسلامية قيمة قرآنية مركزية أكد عليها القرآن الكريم، غير أن أزمة الخلاف بين المسلمين جعل موقع وحدة الأمة الإسلامية يتراجع كقيمة ومكانة ومفهوم ليشوبها بعض الغموض، الأمر الذي يقتضي توضيح الارتباط بين الفكر والواقع، لأنّ حركة الفكر واتجاه هذه الحركة هو الذي يرسم صورة الواقع الاجتماعي والسياسي، ويحدّد فاعلية الأفكار من عدمها.

وبمعنى آخر أن قضية وحدة الأمة الإسلامية سيظل مرهونا بمدى استفحال واستمرار قضايا الخلاف الفكري بين المسلمين بمختلف مضامينها وأبعادها.

وهو الوضع والإشكال الذي يتطلب العمل لأجل البحث عن مخارج تمنع استمرار التمزق والتطاحن تكون بمثابة صمامات أمان تحقق الأمن والخير للجميع.

إن وحدة الأمة الإسلامية هي الإطار الطبيعي الذي من المفروض أن يضم جهود وطاقات جميع الفرق والمذاهب والتيارات الإسلامية المنطلقة من الكتاب والسنة باعتبارهما المصدران الرئيسيان للفكر والأمة في حركتها التاريخية.

ولكن الذي حدث خلال فترات تاريخية من حياة الأمة الإسلامية أن تراجع الفكر الوحدوي وساد الفكر التمزيقي والتبريري فكان التمزق والكراهية والتطرف والتخلف...

إنّ جدلية العلاقة بين الفكر الإسلامي في ظل الخلاف وواقع الأمّة الإسلامية فرض مجموعة من التساؤلات، منها:

1- ماهي الأسس التي أقام على أساسها الرسول صلى الله عليه وسلم الوحدة الإسلامية وكيف يمكن إعادة التأسيس عليها في ظل التّغيرات الّتي طرأت على المجتمعات الإسلامية؟

2- لماذا تحققت الوحدة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تمزقت بعده؟

3- هل أن وحدة الأمة الإسلامية مسألة فقهية أم سياسية أم عقدية؟

4- هل هناك مشكلة منهجية لبناء هذه الوحدة المنشودة؟

5- هل هناك مشكلة ثقافية، وحواجز فكرية تمنع قيام هذه الوحدة الكبرى؟

إنّ الإجابة عن هذه التساؤلات من شأنه أن يقرّبنا من تصوّر مستقبل المسلمين الثقافي والسياسي، وهو ما يزيدنا قناعة بأن اتّجاه حركة الفكر الإسلامي (عقيدة، فقها، أخلاقا) هو الذي يتحمّل مسؤولية التأسيس لوحدة الأمة وقوتها أو لتمزقها وضعفها وتخلّفها.

وفي إطار هذا الخط نتساءل أيضا :

أ- لماذا ذاب الخلاف بين طوائف المسيحيين ثم ذاب الخلاف العميق بين المسيحيين واليهود في حين يستمر الخلاف بين المسلمين سياسيا وفكريا.

ب- هل أن استمرار الخلاف بين المسلمين قدر محتوم يلاحق هذه الأمة؟ فقد عجز عباقرة أبناءها عن رأب الصدع وإعادة اللحمة ثمّ اختفوا في صمت؟

ج – هل أن استمرار الخلاف بين المسلمين مسألة سياسية بالأساس، أم دينية أم أخلاقية نفسية؟

ولا شك أن الإجابة عن هذه التساؤلات من شأنه أن يكشف لنا الحقيقة الموضوعية حول هذه القضية ويرسم أمامنا سبل العلاج والإنقاذ.

1- مفهوم وحدة الأمة الإسلامية:

الوحدة (بفتح الواو) تعني الانفراد تقول رأيته وحده أي منفردا.

أما وصف الأمة بالواحدة فقد ورد في عدة مواضع من القرآن الكريم [1] منها:

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [2]

وقوله أيضا: ﴿ **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾ [3]

---

[1] – مصطفى الديب البغا. **مختار الصحاح**. دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، 1990. ص: 449.

[2] – سورة الأنبياء الآية 92.

[3] – سورة المؤمنون الآية 52.

وهذا ما يدعو إلى ضرورة ضبط مفهوم الأمة الإسلامية في إطار القرآن الكريم، الذي يجعل من الوحدة الإنسانية مدخلا طبيعيا لتأسيس وحدة الأمة الإسلامية ذلك أن الإنسانية في مجموعها تشكل وحدة لا فرقة فيها بالأجناس أو الألوان أو الأقاليم، فكلهم لآدم وحواء خلقوا من نفس واحدة ومن طينة واحدة قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾[1].

إن الاختلاف في الألوان واللغات آية من آيات الله في الكون، قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾[2].

وهذا الاختلاف هو اختلاف تنوع وليس اختلاف تصادم، حيث يكون هذا الاختلاف في الأجناس والألوان والألسنة مدخلا لتعارف إنساني كبير.

غير أن القرآن الكريم لا يقف بهذا التعارف عند هذا المستوى بل يرتقي به إلى تعاون إنساني كبير في إحقاق الحق وإبطال الباطل ومحاربة الظلم والاعتداء تحقيقا للعدالة والمساواة بين بني البشر.

وهذا التوجه القرآني في رؤية الوحدة البشرية يعود أساسا إلى عنصر الوحدة في الفطرة الإنسانية لأن أصل النزوع النفسي واحد، وأسباب الاستقامة والانحراف واحدة، فليس الاختلاف ناشئا من طبائع مختلفة فالطبائع في أصلها واحدة، وإنما يعود الاختلاف إلى التوجيه وبالتالي إلى المحيط الثقافي والاجتماعي.

إن الوحدة النفسية التي يؤكدها القرآن الكريم تعتبر الأجيال كلها أمة واحدة لأن النفس الإنسانية واحدة في الماضي والحاضر والمستقبل. وهذا ما جعل القرآن الكريم يؤكد على ضرورة تصحيح ومعالجة البيئات الاجتماعية والثقافية.

وعلى ضوء هذا المدخل الأساسي جاء التأسيس القرآني المتميّز لقضية وحدة الأمة الإسلامية من خلال مفهوم ونهج وطرح جديد، حيث يدلّ السياق الذي وردت فيه الآيتان على أن المراد بالأمة الواحدة أمة الأنبياء[3].

فهي أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وتنهج نهجا واحدا هو الاتجاه إلى الله دون سواه، أمة واحدة في الأرض ورب واحد في السماء لا إله غيره ولا معبود إلا إياه. أمة واحدة وفق سنة واحدة تشهد بالإرادة الواحدة في الأرض والسماء.

[1] – سورة النساء الآية 1.

[2] – سورة الروم الآية 22.

[3] – سيد قطب.**في ظلال القرآن**. ط7 دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1978. ص:2464.

"ويرى بعض المفسرين أن الإشارة بالأمة الواحدة في سورة الأنبياء تنصرف إلى الأمة المحمدية، فهي ملتكم التي يجب أن تتمسكوا بها ولا تنحرفوا عنها...هي ملة واحدة كما عرفتم من الأمم مع الأنبياء أي ملة واحدة غير مختلفة في الأصول والعقائد" [1].

ومنه يتبين أن المقصود بوحدة الأمة الإسلامية لا يتجه إلى نفي الخصائص المميزة لكل شعب من شعوب الأمة الإسلامية داخل هذه الوحدة، فالوحدة هي الإطار العام الذي ينتفي بداخلها التناقض ولا ينتفي الاختلاف فيما هو خارج نطاق الأصول العامة.

ووحدة الأمة الإسلامية تتجه إلى الإلتقاء حول نفس المقاصد والغايات والأصول بخلاف الفروع التي يكون الخلاف فيها ليس خلافا في الدين.

ومما سبق يتضح أن وحدة الأمة الإسلامية وحدة إنسانية المنطلق قرآنية الهدف والغاية، غير أن اختلاف المسلمين تاريخيا على المستوى السياسي والفكري جعل هذه الوحدة تتمزق نفسيا وثقافيا وسياسيا لتسود مشاعر الكراهية والعداء والتعصب للمذهب والرأي والإقليم.. مما عقّد قضية وحدة الأمة الإسلامية بفعل ما شاع من أمراض داخلية. وهو الأمر الذي يتطلب وعي أبعاد التأسيس القرآني الفعال لقضية وحدة الأمة الإسلامية مفهوما ومنهجا.

2- الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الإسلامية:

أ- البعد الديني:

يمثل البعد الديني أهم عناصر وحدة الأمة الإسلامية نظرا لما يمثله من موقع مركزي في بناء هذه الوحدة، وذلك من خلال تحقيق وحدة عقدية في تصوّر حقيقة الألوهية والكون والإنسان. ووحدة عبادية تضبط عناصر الممارسات التعبّدية من صلاة وصوم وحج..الخ، ووحدة روحية أخلاقية توجّه النّفس والسلوك.

وبتحقّق الوحدة في هذه الدوائر الثلاث (العقيدة، العبادة، السلوك)، تكون وحدة الأمة قد قامت على قاعدة صلبة، لتمتدّ إلى تحقيق وظيفة الاستخلاف (الحضارية) في الأرض.

وعلى ضوء هذا المنهج يتبيّن أهمية البعد الديني في بناء هذه الوحدة بناء متماسكا تنتفي بداخله عوامل التطاحن والأهواء والعصبيات، وتنمو مكانه عناصر التعمير والحب والخير.

[1] – محمود حمدي زقزوق. **مفهوم الأمّة الإسلامية من خلال القرآن والسنة.** منشورات المركز الثقافي، الجزائر، 1993ص: 64.

ب- البعد الإنساني والاجتماعي:

يتضح البعد الإنساني والاجتماعي لوحدة الأمة الإسلامية في روح العقيدة الإسلامية ودعوتها إلى بناء مجتمع إنساني منفتح على مختلف الأجناس والألوان واللغات.

ذلك أن الوحدة الإنسانية بين بني البشر تعد خطا عريضا في رسالة الإسلام فالناس جميعا من نفس واحدة، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾[1]

قال الرسول صلى الله عليه وسلم " يا أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى" [2]

وهذا الارتباط بين البعد الديني والبعد الإنساني والاجتماعي يعود إلى دعوة الإسلام إلى تفعيل الوظيفة الاجتماعية للإيمان، فالعقيدة لا تتحرك في فراغ أو داخل نظريات مجردة لا علاقة لها بالواقع.

قال تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴾ [3]

إن الإنسانية التي ينشئها الإسلام تسع الناس جميعا وتختفي بداخلها عناصر الخصومة والصراع والأنانية وتنمو بداخلها عوامل المحبة والتعاون والإخاء، والإسلام بذلك يرتقي بهذه الوحدة من الحيوانية إلى الإنسانية.

وهذه الوحدة الإسلامية الجديدة التي ينشئها الإسلام لا تكتفي بخدمة المجتمع وإنما تتطلع إلى هداية المجتمع[4].

ج – البعد الجغرافي:

يمتد العالم الإسلامي من إندونيسيا شرقا إلى السنغال غربا ومن طشقند شمالا إلى الصحراء جنوبا، وهو بذلك يمتد في ثلاث قارات: آسيا، إفريقيا وأوروبا.

وينحصر فلكيا بين خطي طول 145 شرقا، 17 غربا وبين خطي عرض 62 شمالا 12 جنوبا.

---

[1] – سورة النساء: الآية 1

[2] – مسند الإمام أحمد، ج 5، ص 411.

[3] – سورة الماعون، الآيات 1 – 7.

[4] – محمد علي شريعتي. **الأمّة والإمامة**. مؤسسة الكتاب الثقافية، 1367هـ. ص:40.

وهذا الامتداد الواسع جعله يطل على 18 بحرا. (البحر المتوسط، البحر الأحمر، بحر قزوين، الخليج العربي، بحر إيجه...) و3 محيطات (الهادي، الأطلنطي، الهندي).

كما يشترك مع دول معنية في بعض البحيرات مثل بحيرة فكتوريا، كما ينفتح على عدة ممرات بحرية (مضيق هرمز، باب المندب، مضيق جبل طارق، قناة السويس...)

ويوجد به 250 نهرا (النيل، الفرات، دجلة، السنيغال، الليطاني، الشلف...)

وهذا الامتداد الجغرافي الواسع والتنوع التضاريسي الكبير والتنوع المناخي والإمكانيات الزراعية والمعدنية والطاقوية...تجعل الأمة الإسلامية تمتلك جميع مقوّمات النهوض الحضاري والتخلّص من أمراض التخلف والفقر وتدهور مستوى الحياة الاجتماعية ...الخ واستعادة مكانتها في المعادلة الدولية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا.

د – البعد الحضاري:

إن الإسلام ليس دينا نظريا مجردا لا علاقة له بالحياة، أو مجرد طقوس تعبدية لا تربط الإنسان بالواقع وإنما هو دين يلتصق بحياة الإنسان في مختلف أطوارها وأبعادها.

إن الإسلام دين الحضارة فقد دعا الإنسان المسلم إلى تحمل مسؤولياته الاستخلافية في تعمير الأرض وإصلاحها.

قال تعالى: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾[1]

وقال أيضا: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[2]

وقد أدرك المسلمون الأوائل هذه الحقيقة الثابتة فعملوا على تجسيدها في أرض الواقع، حيث اشترك علماء الأمة الإسلامية على اختلاف ألوانهم وأجناسهم في بناء ذلك الصرح الحضاري الكبير خلال العصر الوسيط.

وما ذلك التراث الفكري والمادي الذي تركه الأسلاف إلا خير دليل على تكامل وتوحّد جهود أبناء الأمة الإسلامية بعيدا عن النزاعات والصراعات والأحقاد وهو ما ظهر في تبوء الأمة الإسلامية المكانة الأولى في قيادة البشرية في مختلف ميادين الحياة خلال قرون ماضية.

غير أن هذا الإشراق الحضاري الذي كان مصدر إلهام ويقظة لعصر النهضة الأوروبية، سرعان ما أخذ يخفت بفعل ما أصاب الأمة الإسلامية من هزات داخلية وخارجية ليتوقف ذلك العطاء الحضاري وتتحول

[1] – سورة هود الآية 61

[2] – سورة البقرة. الآية:30.

صورة ذلك الإشراق الإسلامي إلى صورة للعنف والتخويف والتخلف والرعب للآخر (الغرب) وحتى للمسلمين فيما بينهم.

لتتوقف الظاهرة الحضارية من تعمير واستخلاف ورحمة وتبدأ ظاهرة الإسلاموفوبيا L'islam-phobie والّتي تعني الخوف من الإسلام أو الإسلام المخيف.

ولا شك أن أهم تفسير لهذه الوضعية المزرية التي شوهت صورة الإسلام والمسلمين هي حالة الاختلاف والكراهية والصراعات السياسية والمذهبية التي أوقفت جهود نشر الإسلام والتعريف به وبحضارته لتتجه إلى التآكل الداخلي والضعف والتخلّف.

هـ – البعد المصيري:

شكلت وحدة الأمة الإسلامية سدا صلبا منيعا أمام الأطماع الأجنبية بفعل القوة السياسية والعسكرية والحضارية التي مثلتها في المعادلة الدولية آنذاك.

كما أحبطت وحدة الأمة الإسلامية أطماع مختلفة للقوى الأجنبية منذ عهد الإمبراطورية البيزنطية التي وقفت عاجزة عن النيل من عزة وكرامة هذه الأمة، وفوجئت أوروبا بالمد الإسلامي على مشارف فيينا شرقا والأندلس غربا غير أن بروز النزاعات السياسية (ملوك الطوائف) والعرقية والمذهبية انتهى بإزالة الوجود الإسلامي من الأندلس وصقلية...

أما في المشرق الإسلامي فلم تكن الصورة مختلفة فبعد سقوط الدولة العباسية على يد التتار سادت الفوضى بسبب التركيبة الإثنية لتلك المجتمعات التي ساهمت في تغذية تلك الحساسيات السياسية والعرقية والمذهبية.

وظهرت بعض المحاولات مثل جهود الدولة الفاطمية والدولة الموحدية في المغرب الإسلامي، والدولة الأيوبية والدولة العثمانية في المشرق الإسلامي.

غير أن تلك المحاولات الجديرة بالاحترام لم تستطع تحقيق أهدافها بسبب عوامل الاختلاف والفرقة والتطاحن المادي والفكري التي قضت على وحدة الأمة الإسلامية والتي بسقوطها كانت الأمة تتعرض للحروب الصليبية في شرق العالم الإسلامي وغربه وللحركة الاستعمارية.. وإلى جميع مخططات النهب والتجهيل...الخ.

إنّ الأخطار التي تهدّد الأمة الإسلامية في مشرقها ومغربها واحدة في أطماعها السياسية والاجتماعية والثقافية، والحاجز الوحيد لكسر هذه الأطماع هو إعادة بناء هذه الوحدة المنشودة كما أسّسها الرسول صلّى الله عليه وسلّم وصانها خلفاؤه من بعده.

3– نشأة الخلاف بين المسلمين وتطوره:

إن أخطر ما أصيبت به الأمة الإسلامية هو داء الاختلاف، ونظر لتعدد جوانب الموضوع وتنوع مصادره مما جعل له جانبا منطقيا جدليا تكفلت ببحثه كتب المنطق وجانبا أصوليا وجانبا فقهيا[1].

إلا أن التوظيف السياسي الكلامي (الإيديولوجي) والتطبيق الاجتماعي، جعل موضوع الاختلاف من الخطورة والحساسية بمكان بحكم حجم التأثير الذي أحدثه على محور وحدة الأمة الإسلامية وهو ما يتطلب تناوله تناولا علميا موضوعيا يبحث في العوامل والأسباب ويحلل النتائج ويستشرف مستقبل قضية الوحدة بين المسلمين.

إن ظاهرة الخلاف حقيقة عرفتها هذه الأمة، ومن الخطأ محاولة القفز على هذه الحقيقة والتقليل من شأنها بتصوير أن الخلاف كان خلافا فرعيا وكان خيرا ورحمة..الخ، ذلك أن جزء مما يعانيه المسلمون اليوم من صراعات واقتتال تعود جذوره إلى ذلك الماضي وهو ما يستدعي فهم حقيقة ذلك الخلاف وطبيعته وما كان منه مقبولا وما كان منه مرفوضا ثم التعرف على الكيفية التي إمتد بها هذا الخلاف إلى الأجيال الحاضرة ثم اللاحقة.

فهل أن توارث الخلاف بين المسلمين قدر يلاحق هذه الأمة أم أنه اختيار وتخطيط...؟

إن تسليط الضوء على هذه الظاهرة بموضوعية علمية بعيدا عن الذاتية من شأنه أن يخفف من وطأة هذا الداء.

وبتأمّل المقدمات السابقة نجد أن تمزق وحدة الأمة الإسلامية يعود أساسا إلى أحداث تاريخية بعضها ذا طابع سياسي والبعض الآخر ذا طابع فكري، وإذا استثنينا الخلاف الذي وقع في السقيفة وما تلاه والذي سرعان ما لقي مخرجا بحيث ظلت الأمة محافظة على روحها ورسالتها وأهدافها، إلا أن الأحداث التي عصفت بالمسلمين فيما بعد من معركة الجمل وصفين وكربلاء وظهور الفكر التكفيري المتطرف الذي مثّله الخوارج وما تلا ذلك من أحداث لعبت دورا كبيرا في تمزيق وحدة الصف الإسلامي نظرا لاستصحاب الصياغة العقدية في تحليل الأحداث التاريخية والتي نتج عنها تصنيف هذا الطرف أو ذاك، هذا الفكر أو ذاك بالغلو والتطرف والبدعة والكفر والضلال ونحوها. بالإضافة إلى الجمود الذي تعرّض له الفكر الإسلامي في عصر الإنحطاط وانفصاله عن مجريات الواقع، والتحدّي الثقافي والحضاري الغربي[2].

كل تلك الظروف والأوضاع السياسية والفكرية أدت إلى تغير مسار الأمة الإسلامية وهو ما لاحظه مفكر مثل مالك بن نبي الذي قام بضبط مسيرة الأمة الإسلامية من خلال مراحل ثلاث: مرحلة الروح، مرحلة

[1]- طه جابر فياض العلواني. **أدب الاختلاف في الإسلام**. دار الشهاب، باتنة، 1985. ص: 19.

[2]- عبد المجيد النجار. **فقه التديّن فهما وتنزيلا**. ط3. الجزائر، 2006. ص:98.

العقل، مرحلة الشهوات، ليجعل من صفين النقطة التي أوقفت إنطلاقة وإشراقة مرحلة الروح، ومن زوال دولة الموحدين نقطة الانحدار إلى مرحلة الشهوات.

وعلى ضوء ما سبق يمكن تحديد أهم قضايا الخلاف التي مزقت وحدة الأمة الإسلامية في:

أ – الخلاف حول قضية الإمامة.

ب – الخلاف في فهم الأصول العقدية.

وقد أدى الخلاف حول هاتين القضيتين[1] إلى افتراق الأمة حول قضية الإمامة بين كونها مطلبا عقديا أو مطلبا سياسيا إجتهاديا هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الخلاف في فهم الأصول العقدية مبررا ومدعاة إلى استصحاب الصياغة العقدية في الحكم على مختلف الأحداث السياسية، دون الأخذ بعين الاعتبار الطبيعة المركبة والمعقدة للأحداث التاريخية.

وقد نتج عن ذلك، ظهور ما عرف فيما بعد بالفرق الإسلامية (شيعة، مرجئة، خوارج)، ومن مذاهب ومدارس إسلامية (معتزلة، أشاعرة، جبرية، أهل الحديث وغيرها...).

وقد لفت أنظارنا أثناء دراسة قضية الخلاف بين المسلمين كظاهرة اجتماعية – دينية –، تطور الخلاف بين المؤسسين الأوائل للفرق والمذاهب وبين الأتباع والتلاميذ المتأخرين.

فعلى الرغم من حساسية موضوعات الخلاف وشدتها إلا أن الجيل الأول استطاع أن يحافظ على مستوى معين من الطرح العلمي والقوة العقلية الاجتهادية وهو ما تجسد في مئات المناظرات والمجادلات والمحاورات بين مختلف الفرق والمدارس التي برزت فيها قوة الملكات والاجتهادات وشكل في النهاية ذلك التراث المعرفي الضخم لهذه الأمة.

في حين نرى أن المستوى العلمي للخلاف أخذ يتراجع نحو الضعف في عهد التلاميذ والأتباع الذين توقفت جهودهم عند التقليد والشروح والتعليقات وغاب عنها عنصر الاجتهاد والمرونة ولتصبح آراء أولئك المؤسسين الأوائل فيما بعد آراء مقدسة لا يجوز الخروج عنها أو معارضتها.

ومما لا شك فيه أن غياب ضوابط علمية وأخلاقية يقف عندها الجميع هي التي سمحت لتلك الخلافات أن تمتد إلى حاضر المسلمين وتهدد مستقبل الأجيال القادمة ليكون مصيرها صورة مشابهة لماضي أسلافها. وهو ما يحتاج إلى إعادة قراءة قضية الخلاف برؤية إيجابية تستفيد من الماضي وتمنع سلبياته من الامتداد إلى الحاضر، وفي هذا الخطّ يقول محمّد الغزالي: " ما وقع من خلاف يدرس في إطار البحث العلمي والعبرة التاريخية، ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم بل يجمّد من الناحية العلمية تجميدا تامّا ويترك حسابه إلى الله، وليعمل المسلمون جميعا لبناء مستقبلهم على أساس دعم الأصول المشتركة وهي كثيرة

[1]– محمد أبو زهرة. **تاريخ الجدل**. دار الفكر العربي، 1980. ص: 82.

جدا في جو من المرونة والتسامح"[1]. ومدخل هذا التأسيس الجديد يبتدئ من الإيمان بأن الخلاف في حد ذاته لا خطر منه لأنه تعبير عن ذلك التنوع في الآراء والأفكار. غير أن تسلل ودخول عناصر أجنبية على جو الحوار العلمي كالكراهية والعصبية والتكبر وسوء الظن بالمخالف وغيرها من العناصر أدت إلى تسميم الجو العام الذي أثر سلبيا على انسجام وتعايش الوحدة الإسلامية الكبرى، فقد أدت تلك العناصر إلى إفساد أجواء الحوار وتلغيم مسائله، ليكون التراشق بالتبديع والتكفير كمقدمة لسفك الدماء والاقتتال.

وهكذا تقف الكراهية الدينية والآراء المتحجرة ومصالح السلاطين وغيرها كمحركات لتمزيق الوحدة الإسلامية نفسيا وثقافيا وسياسيا وروحيا، وقد أعطت هذه الصورة الجديدة لواقع الأمة الإسلامية فرصة لأعداء الإسلام للطعن فيه بكونه دين العنف والقتل واللاتسامح وغير ذلك من التهم الباطلة.

وقد أدرك أعداء الإسلام أكثر من أي وقت مضى أهمية توظيف الخلاف الإسلامي – الإسلامي عقديا، تاريخيا، فقهيا، سياسيا. كمخطط لضرب المسلمين بعضهم بعض وضرب الإسلام بالإسلام. لتكون هذه الضربات من الداخل لصالح من لا يؤمن بسنة أو شيعة أو مرجئة أو إباضية أو أشعرية...إلخ.

ولذلك كانت المحافظة على وحدة الأمّة وتماسكها امتثال لروح القرآن وحماية الإنسانية.

4) جهود جماعة التقريب لإعادة بناء وحدة الأمة الإسلامية ومدى نجاحها:

لقد سبقت جهود جماعة التقريب بعض الجهود الفردية مثل جهود جمال الدين الأفغاني الذي دعا إلى ضرورة إنشاء جامعة دولية إسلامية، حيث طوّف في أرض الإسلام يحرّض ويجمع ويدعو الأمّة الإسلامية إلى اليقظة وبعث الهمّة، ولكنّ دعوته أحرجت الحكّام فألجؤوه إلى دار الكفر، الّتي أصدر منها مجلّة العروة الوثقى، غير أنّ جهوده أقلقت أعداء الإسلام في أوربا و أعداء الوحدة الإسلامية، فدبّرت له مكيدة ليجد نفسه في سجن القسطنطينية، وينقطع صوته المدوّي. ولعلّ الإنصاف يدعونا إلى القول أنّ الزمن لم يكن مواتيا لدعوة جمال الدّين الأفغاني، الذي كان سابقا لعصره، فقد كانت الأمّة خاملة وأعداء الإسلام متيقظون[2]. وقد حاول الشيخ محمّد عبده والشيخ رشيد رضا وغيرهما من المصلحين تجديد الفكر الإسلامي كأساس لنهضة شاملة، وقد أثمرت تلك الجهود الفردية ببروز قناعة جماعية تؤمن بالتقريب فظهرت جماعة التقريب التي عملت من جهتها على إعادة بناء وحدة الأمة الإسلامية دون إقصاء لأي طرف أو رأي أو مدرسة في إطار منهج علمي يسع الجميع يقوم على موضوعية الطرح والشعور بروح المسؤولية في جمع كلمة الأمة لمواصلة رسالتها.

---

[1]– محمد الغزالي. **دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين**. دار الكتب، الجزائر، 1988. ص ص: 159-160.

[2]– محمّد أبو زهرة. **الوحدة الإسلامية**. دار الرائد العربي، بيروت. ص: 6.

وقد نجحت هذه الجماعة في فترة تاريخية معينة من استقطاب شخصيات علمية ودينية، لها وزنها على الساحة الإسلامية والدعوية حيث عملت على تنمية الوعي والإحساس الديني – الإسلامي بأهمية الوحدة وتجاوز حواجز التفرق والانقسام، وقد أثمر هذا التقارب بعقد عدة ندوات وملتقيات وأعمال مشتركة كانت تحاول جمع الإخوة الفرقاء الذي فرقتهم الكراهية والعصبية والطائفية...كمدخل يؤسس لمرحلة توحد حقيقية تختفي فيها بذور التطاحن والتمزق.

" وفي يناير 1959 أصدر فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر محمود فتواه الشهيرة بجواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول ومنها مذهب الشيعة الإمامية وتم توزيع هذه الفتوى على البلدان الإسلامية، حيث بدأت تتوالى عليه التساؤلات والاستفسارات وهو يرد عليها.

ومن المعروف أن الإمام الأكبر أحد المشاركين في اجتماعات دار التقريب التي عقدت في عام 1947 وقد أسهم مع آخرين في تطوير مناهج كلية الشريعة بجامعة الأزهر لتكون الدراسات الفقهية على مختلف المذاهب لا فرق بين سنة وشيعة، والهدف من ذلك كما يرى الإمام الأكبر بيان وجهة النظر الفقهي حكما ودليلا لكل من مذاهب السنة الأربعة المعروفة والإمامية الإثناعشرية – والزيدية، حتى تتحقق الفائدة من المقارنة وهي وضوح الرأي الراجح من بين الآراء المتعددة وتبطل العصبيات المذهبية المذمومة.

ولم تكن هذه الفتوى وذلك الاتجاه للتقريب قضية يسيرة فقد انبرى البعض لدى السنة أو الشيعة للقول بأن هذه الدعوة هدفها الانحياز أو دفع المسلمين في اتجاه مذهب بعينه. وقام الإمام الأكبر يرد: بأن الدعوة إلى التقريب ليست دعوة إلى بقاء مذهب على حساب مذهب ولكنها دعوة لتنقية المذاهب من الشوائب التي أثارتها العصبيات وأذكتها العقلية الشعوبية[1].

كما انظم محمد تقي القمي لمساندة الدعوة إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية حيث بين أن هناك فارق بين خلاف وخلاف ... هناك خلاف تقتضيه سنن الاجتماع وهذا مقبول ... وهناك خلاف يصطنع اصطناعا وهذا مرفوض. والخلاف المذهبي الناشئ عن آراء اجتهادية ملتزمة بالكتاب والسنة آراء مرحب بها، وهي تعبير عن الحرية الفكرية في الإسلام، ولا يجوز الجدال في قيمة الاجتهاد مهما يكن من تعدد الآراء بين المجتهدين، فهذا مما يشرف التشريع الإسلامي ويجعله صالحا لعلاج ما يجد وما يحدث في كل مكان وزمان.

أما الخلافات حول أوائل المقالات أو المعارف الكلامية، أو ما يسمى بعلم الكلام فإنها معارف إسلامية تبلور كثيرا من الحقائق وتصقل العقول والأفهام، وهذه الخلافات الظاهرة هي في باطنها تشير إلى الوحدة لا

[1]– مجدي رياض. **المقدّس والغير مقدّس في الإسلام**. مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2004. ص ص: 107-108.

إلى الفرقة وتنبئ عن الاجتماع لا عن التشتت، مادام الحق هو المبتغى فالوصول إليه ليس بعسير إذا نظر كل فريق نظرة هادئة إلى ما عند سواه.

أما الخلاف الذي تمليه الكراهية والبغضاء وتغذية الشبه والأوهام، ويوجد البلبلة في صفوف الأمة ويؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين، فهذا الخلاف لا يتفق والخلق الإسلامي ولا يستند إلى المعارف الإسلامية، فبعضهم خلط بين أهل السنة والنواصب، وأكثرهم خلطوا بين الشيعة والغلاة، وبينها وبين الفرق البائدة وألصقوا بها آراء لا تمت إليها بصلة.

وكم من كتب وضعت لتأجيج الخصومة بين طوائف المسلمين وكان لهذه التآليف أسوأ الأثر في تصدع وحدة الأمة.

ثم جاء التقريب لا لتوحيد المذاهب وإلغاء الخلاف وإنما لوقف الإسفاف في السب والشتم الذي لا يخدم أي طائفة بل على العكس يجلب الضر لكل فريق[1].

وفي إطار هذا التقريب تم طبع بعض الكتب في مصر مثل: مختصر النافع في فقه الإمامية ومجمع البيان للفضل بن الحسن الطبرسي.

أما الشيخ محمد الغزالي فيذكر أن المستشرق المجري " جولد تسيهر "ينقل أن الملك نادرشاه سعى جادا كي يعقد مع الأتراك صلحا ينقّي فيه الجو بين الشيعة والسنة ويضع حدا للخلاف القائم بين الفريقين.

ولدينا (جولد تسيهر) فيما اشتملت عليه كتابات الفقيه السني " عبد الله بن حسين السويدي " وثيقة هامة معاصرة عن مجمع ديني عقده " نادرشاه " جمع فيه فقهاء الفريقين وانتهوا في هذا المجمع إلى اتفاق يقضي بضم التشيع إلى المذاهب السنية الأربعة وجعله مذهبا خامسا.

يقول الشيخ محمد الغزالي بعد ذلك : وقد أحسست وخزا في فؤادي وأنا أقرأ كلمة الإسلام الشيعي والإسلام السني التي ترددت على لسان المستشرق المجري مرارا، فهل هناك إسلامان حقا في أمتان، إنه إسلام واحد[2].

إلا أن جماعة التقريب لم تستطع أن تعمر طويلا حيث اختفى ذلك الخط الفكري ليقتصر على جهود فردية معزولة عن حركة الفكر والدعوة.

لتعود إلى الساحة الإسلامية عامة لغة التشدد والتعصب والتكبر والرفض للآخر ليفرض السؤال القديم – الجديد نفسه مجددا، ما السبب وراء ذلك؟

---

[1]- مجدي رياض. **المرجع السابق.** ص ص: 110-111.

[2]- محمد الغزالي. على أوائل الطريق للإنضواء تحت لواء الإسلام. في: **مجلة الثقافة الإسلامية.** ع.39، 1991. ص ص: 41-42.

ليستنتج الباحث أن العوامل التي فجرت الخلافات قديما من سياسية، مصلحية وثقافية... لا تزال حية في كيان الأمة، وأن الداء الجديد هو نفسه الداء القديم، على حد تعبير مالك بن نبي: الأفكار الميتة والمميتة. ذلك أن الخلافات السياسية الضيقة بين الممالك والدول والسلاطين والأمراء وظفت العنصر الديني لتبرير آرائها ومواقفها المختلفة. مما جعل الشعوب الإسلامية في هذا القطر أو ذاك ضحية لهذه الخلافات السياسية – الدينية. فكانت تبتعد بذلك عن بعضها البعض أكثر مما تقترب بحكم ما ترسب بداخلها من تراكمات نفسية، أخلاقية وفكرية.

وقد ازداد هذا الجرح عمقا بذلك الانفصال القديم بين السلطة الدينية والسلطة السياسية.

وإذا كانت العوامل السياسية قد أسست لهذا الشرخ العميق بسبب تضارب المصالح السياسية قديما وحديثا بين الدول الشيعية والدول السنية على طول التاريخ ووقفت حاجزا يمنع تحقيق التقارب المنشود كخطوة إيجابية في طريق إعادة بناء وحدة الأمة الإسلامية، حيث أدى اختلاف وتطور هذه المصالح عند هذا الطرف أو ذاك إلى توظيف المذهبية الدينية كورقة سياسية اجتماعية لكسب النزاع.

فإن العوامل النفسية والثقافية لا تزال من جانبها تزيد من عمق هذا الشرخ وذلك بسبب التعامل العاطفي الانفعالي مع قضايا الخلاف التي تتطلب الهدوء والموضوعية والابتعاد عن الذاتية ما أمكن.

إن الإقرار بمدى حجم الضغط النفسي والعاطفي الذي تحدثه القراءات المختلفة لقضايا العقيدة والسياسة، لن يمر دون إحداث اهتزازات عاطفية ونفسية عنيفة تترك بصماتها على الفكر والسلوك.

ولذلك كانت قضية الخلاف في حد ذاتها قضية لا تتحملها كافة العقول. وإذا كانت النخبة من علماء الأمة من سنة أو شيعة ممن ورثوا التقليد المذهبي لا تستطيع كما هو الحاصل الآن تقبل أو سماع الرأي المخالف. فكيف يكون حال الجماهير حين تثار بالخطب الحماسية والشعارات المثيرة والمهرجانات إلا الاندفاع وراء العنف اللفظي والجسدي والاعتداء (المقدس).

وعلى ضوء ما سبق نلمح أن الفشل الذي ظل يلاحق حركات الإصلاح والتقارب والوحدة يعود إلى تغلغل العناصر التجزيئية كوجود وعقدة تعيش في داخل كيان الأمة، وهذه الحالة النفسية يجب التخلص منها كأساس للتخلص من المشكلة[1]، ضف إلى ذلك أن التاريخ المعقد الذي عاش المسلمون مشاكله الدامية وأساليبه المختلفة لا يمكن إلغاءه بخطبة أو حركة سريعة لأن الرواسب التي يتركها في الأعماق من مشاعر وأفكار وتعقيدات تخلق بدورها حاجزا نفسيا وثقافيا يقف إلى جانب الحاجز السياسي.

[1]– محمد حسين فضل الله. الوحدة الإسلامية بين الواقع والمثال. في مجلة: **الثقافة الإسلامية**. ع.39. 1991.ص: 20.

ومن ثم كان لا بد من منع تحول الفرز المذهبي إلى حالة طائفية أو عشائرية في أفكارها وعواطفها ومواقفها السياسية والاجتماعية والأخلاقية، حتى تكون الشخصية الإسلامية بعيدة عن النظرة الضيقة وبالتالي عن الانحراف عن خط الوحدة.

ولما كانت تجربة جماعة الوحدة جديرة بالاهتمام، كان لا بد في اعتقادي الشخصي من تحديد بعض المرتكزات والضوابط المنهجية والفكرية والأخلاقية التي يجب أن نضبط الفكر الإسلامي عامة (سنة، شيعة، خوارج، مرجئة...معتزلة، أشاعرة...).

والتي من شأنها أن تعمل على تأسيس تلك القاعدة الفكرية والأخلاقية الصلبة للتقريب وبالتالي للوحدة الإسلامية الكبرى.

وإذ استطاع المجددون من علماء الأمة تأسيس هذا النهج الجديد، فإن ضغط العوامل السياسية سيخف قليلا وإن ظل قائما بحكم الضغط الذي تمارسه القوى الاستعمارية، وفي هذه الحالة يكون النهج الجديد قد استطاع تقريب الشعوب والأفكار والعواطف.

وأهم هذه الضوابط المنهجية والفكرية:

- تقديم أصل الوحدة على ظاهرة الاختلاف.
- الابتعاد عن الذاتية وإضفاء الطابع العلمي على الاختلافات.
- الارتباط بالواقع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي.
- إدراك الطبيعة المركبة للقضايا التاريخية.
- اجتناب الصياغة العقدية للخلافات الفكرية والسياسية.
- اجتناب المبالغة.
- إحسان الظن بالمخالف واعتماد لغة الحوار[1].

الخاتمـة:

إن الأمة الإسلامية أحوج ما تكون إلى التوحد والاتفاق في هذه الأزمنة العصيبة التي يعمل فيها أعداء الإسلام على تفرقة المسلمين وزرع بذور النزاعات والخلافات والعداوات بينهم، لتذهب ريحهم، ويسهل كسر شوكتهم وتشتتهم، ولذا فقد آن الأوان لأن تأخذ الأمة حذرها وتتوجّه إلى الاجتماع والائتلاف، والتوحد والاتفاق.

[1]- محمد بن مختار الشنقيطي. **الخلافات السياسية بين الصحابة**. دار قرطبة، الجزائر، 2004. ص ص : 46-81.

إن أعداء الإسلام الذين اجتمعوا على محاربته في مختلف البلدان، لم تفرق بينهم مسافات الخلاف الداخلية أو الخارجية، وهم لا تجمعهم عقيدة صحيحة، ولكن عداوتهم للإسلام وحدت بينهم.
بخلاف المسلمين الذي تجمعهم العقيدة الواحدة الحقّة، والكتاب الرباني العظيم، والرسالة النبوية الهادية الجامعة، فكيف بمن يقوم بشق الصفوف، وتغذية تفرقتهم وتمزيق الجماعة، وتوسيع مسافة الخلاف والشقاق بينهم، وهو يظن بنفسه أنه ينصر ديناً، ويحمي يقيناً وينشر شريعة، وهو في الحقيقة عدوّا لهذه المعاني.
إن اشتداد الاختلاف بين طوائف المسلمين خطر يتطلب ضبطه بين خلاف مقبول وآخر مرفوض
وإن المراد بالاختلاف المرفوض هو ذلك الذي يتطور، وتتعمق أخاديده ويعدم صاحبه الإبصار وتغيب عنه أبجديات الخلق الإسلامي، فتضطرب الموازين.
وقد تنقلب الآراء الاجتهادية على أيدي المقلدين والأتباع، إلى ضرب من التحزب الفكري والتعصب السياسي والتخريب الاجتماعي.
لقد اختلف السلف الصالح رضوان الله عليهم، لكن اختلافهم في الرأي لم يكن سبباً لافتراقهم، إنهم اختلفوا، لكنهم لم يتفرقوا، لأن وحدة القلوب كانت أكبر من أن ينال منها شيء فقد تخلصوا من العلل النفسية.
إن أهمية التوحد والاجتماع، والاتفاق والائتلاف في الشرع الحنيف أوضح من أن تبيَّن، ونصوص الكتاب والسنة وأقاويل علماء السلف من الصحابة ومن بعدهم في الحث على ذلك والتحذير من التفرق والتشتت والشقاق متضافرة لا يأتي عليها الحصر.
ولا ريب في أن السلف رضوان الله عليهم اختلفوا في كثير من المسائل العملية وبعض المسائل العلمية الاعتقادية، ومازال الاختلاف بين من بعدهم من الأئمة واقعاً في الفروع وبعض الأصول، ولكن هذا كان منهم مع الحفاظ على أدب الاختلاف والألفة والمحبة والتوقير واحترام رأي المخالف، مع التحرز عن التحاسد والتقاطع والتباغض، ومع الحث على التزام التوحد والتجمع والابتعاد عن التشتت والتفرق.
ويستفاد من أخبار أئمتنا وعلمائنا السابقين ما يدل على أنهم رحمهم الله تعالى كانوا يحافظون على المودة والأخوة مع اختلاف مسالكهم وآرائهم، وما أكثر ما نقل من ذلك.
وما عقد الندوات والمؤتمرات وتأسيس المراكز العلمية لشرح فكرة التقريب هذه، وتوضيح أهدافها وتيسير سبلها، وتذليل الصعاب التي تقف في طريق إنجازها وإنجاحها إلا خطوة في طريق الوصول إلى الهدف الأسمى وهو وحدة الأمة الإسلامية.
وفي الأخير نقول:

إن الدعوة إلى التقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية لا تعني انصهار المذاهب في بوتقة واحدة، أو الذوبان في مذهب واحد، بل هي خطوة نحو توحيد المسلمين، وتقوية أسباب التعارف والتآلف بينهم، والتقائهم بعد تنافرهم وتباعدهم واستثمار ما بلغته المذاهب الإسلامية الفقهية والكلامية في الوصول إلى انطلاقة الفكر الإسلامي وبيان سعة الفكرالاسلامي عقيدة وفقها على المواجهة والتصدي لكل التيارات المناوئة للإسلام.

كما يجب على المسلمين جميعا العمل على إيجاد مساحات من التقارب فيما بينهم اقتصاديا بتأسيس مشاريع مشتركة.. واجتماعيا بتشجيع الزواج فيما بينهم توطيدا لصلة الأرحام.. ونفسيا بدفع سوء الظن والكراهية.. وفكريا بالتعاون فيما اتّفق عليه من الأصول.. وسياسيا بالإتفاق على الحدّ الأدنى من الثوابت.

وعليه فإنّ وحدة الأمة الإسلامية ستظلّ مرهونة بمدى قدرة المسلمين على تجاوز خلافاتهم.